أفق ١٤ . ٧ . ٢٠٠٨

أفق مفتوح

إطلاق البالونات .. والمستقبل الآتي ..

ناهض منير الريس

لا يغرنا هذا الحراك السياسي الدولي كله ، فالفترة فترة موات أمريكي . واللعب الآن جار في ملعب غير نظامي في الوقت الضائع . ولا طائل من ورائه سوى أنه يغطي الوقت الممل في انتظار مجيء رئيس أمريكي جديد . أما الرئيس بوش فلا يستطيع أن يرتكب حماقة جديدة ، حتى وإن اشتهاها في قلبه . لأن بين دهاقنة الحزب الجمهوري الذي خسر انتخابات الكونغرس من يتحفظ كثيرا على أية حماقات من جديد . عسى ولعل انتخابات الرئاسة تأتي بنتيجة أفضل . وهؤلاء لم يفقدوا الأمل في فرص مرشحهم جون ماكين لكسب المعركة أمام مرشح أسود ضعيف نسبيا سوف تتشكل ضده في المرحلة الأخيرة جبهة مسعورة تلم شعثها من الأميركيين البيض العنصريين المتحالفين مع المحافظين الجدد المتصهينين ومع اللوبي الصهيوني الذي لا يرى في أوباما مطية مضمونة قدر ضمان المطية الجمهورية مهما قال ومهما زايد في تمرغه على أعتاب الصهيونيين ، استرضاء لذلك اللوبي ولأجهزة إعلامه وأمواله ومؤامراته . فهم يعلمون أن الأول يفعل ما يفعل من باب استيفاء شروط النجاح في الحملة الانتخابية بينما مرشح المحافظين الجدد صهيوني عقيدي .

وإسرائيل التي لعبت لعبة التهديد بشن غارات جوية على المراكز النووية الإيرانية ، سبق لها قبل عدة أشهر أن قامت بالتدريبات الجوية التظاهرية نفسها التي قامت بها مؤخرا في شوط طويل من تل أبيب حتى مضيق جبل

طارق (المسافة ذاتها إلى إيران) وسربت أخبار تلك التدريبات أيضا . مثلما فعلت مع قطاع غزة عدة مرات حينما حشدت دباباتها وهددت تهديداتها ونشرت على أجهزة الإعلام صور الحشود ثم لم تهجم ولم تقتحم وتبين أنها أعجز من أن تشن عدوانها ، لا لأنها لا تملك أدواته ، ولكن لأنها لا تستطيع أن تدفع ثمنه ولا أن تتلقى على رأسها عقابيله . وإسرائيل تريد الآخرين أن يقوموا بهذه المأمورية نيابة عنها وأن يتلقوا ردود الأفعال على رؤوسهم . فكل الجوييم . بمن فيهم الإنجيليين البروتستانت . فداء رخيص من أجل إسرائيل .

ويعرف الإيرانيون ذلك جيدا . ويفهمون أن الأمريكيين والأوروبيين مهما قالوا وأعادوا وتهددوا وتوعدوا فإن التهديد والتوعد والعقوبات الاقتصادية والحصار المطبق هو غاية جهدهم وأقصى طاقتهم . فإذا لم تقم الولايات المتحدة بهذه الخطوة فلا أحد يقوم بها . وهكذا أخرج الإيرانيون لسانهم للطيران الإسرائيلي الذي يقوم بتدريبات غايتها التهويش والتلويح بحافة الهاوية ، وردوا على ذلك بإطلاق صواريخهم البالستية التدريبية ردا وتحديا وسخرية .

الساحة الدولية مليئة ببالونات اختبار تمهيدا للمرحلة الجديدة التي لن تبدأ حتى يأتي رئيس أمريكي جديد . ومن هذه البالونات تدريبات الطيران الإسرائيلي ، ومنها مؤتمر اتحاد دول المتوسط الذي عقده الرئيس الفرنسي المتصهين ساركوزي . ومنها المحادثات غير المباشرة بين سوريا وإسرائيل في تركيا ، ومنها زيارة رئيس الوزراء التركي أردوغان للعراق . ومنها أيضا المحادثات غير المباشرة بين حماس وإسرائيل في القاهرة .

تريد سوريا أن تخرج من عزلتها بعدما تركها إخوانها العرب وحيدة في موقفها . وتريد عرابا يرعى عملية فك الحصار عنها . ولما كانت الوجهة

واشنطن فإن ساركوزي يبدو وسيطا مقبولا لديها ، بل يبدو من أهل الدار هناك . فهو من الواصلين إلى الدار عن طريق زقاق اللوبي الصهيوني . وهذه الحظوة التي يتمتع بها تخوله أن يتحرك وأن يخطف الأضواء على المسرح الدولي ولو خلال البرهة التي تتوقف فيها صناعة السياسة في الولايات المتحدة وتجري صناعة الانتخابات فقط . وكما أن (الشرق الأوسط) كان دائما من الميادين التي يحاول الرؤساء الذين هبطت شعبيتهم أن يستعيدوا شيئا منها بأن يوفروا لأنفسهم مظهر فرسان الميدان الشرق . أوسطي المسموح لهم بمدخل بين آبار النفط ، فإن ساركوزي اغتنم برهة إطلاق بالونات الاختبار الحالي ونزل إلى الميدان ، واضعا أمير قطر إلى يمينه ، والرئيس السوري إلى يساره ، والرئيس اللبناني في طرف المشهد ، متحدثا عن لبنان باللهجة القديمة . لهجة الأم الحنون . الراعية للمارونية السياسية . ولم يفته وهو يعرج على غرض من أغراضه الحميمة أن يأتي على ذكر شاليط (الذي علمنا للمرة الأولى من الرئيس ساركوزي عن أصوله الفرنسية الداعية طبعا إلى إطلاقه كرامة لعين الرئيس الفرنسي الذي قد يكون أحد أقربائه من ناحية أم ساركوزي !) . وعندما ذكر ساركوزي شاليط وأصوله الفرنسية تذكرنا كلام المعلقين المتشائمين الذين قالوا إن مشروع البحر المتوسط بزعامة ساركوزي يراد منه إدماج الجميع في حومة التطبيع مع إسرائيل وإدخالها إلى المغرب العربي رسميا عن طريق باريس .

هل هناك تغير يمكن القول إنه قادم في الطريق ؟ كلا ! لا شيء قريب ولكن جميع الأطراف ما انفكت تدير أزمة تشابكت خيوطها بشدة في عهد المحافظين الجدد المتصهينين الذين شهروا سيفهم في وجوهنا وانتهجوا سياسة الفوضى الخلاقة وأتعبوا أعصاب المنطقة . ولكنهم لم يحصدوا من

وراء ذلك إلا الخيبة إضافة إلى بضع اتفاقيات نفطية مع كردستان العراق ليس بوسعها أن ترقع الخرق الهائل في الخزينة الأمريكية في التو واللحظة ، الذي نجم عنه الانهيار المستمر في سعر الدولار الأمريكي وفي بنية الاقتصاد الأمريكي . هذا وما زال العراق مستنقعا دمويا ، وما زال المقاتلون العنيدون في أفغانستان يكبدون أمريكا وحلفاءها الأوروبيين خسائر يومية ونزيفا دمويا متواصلا لا يوقفه الطيران الأطلسي ولا الترسانة متنوعة الأسلحة ، وهكذا صمد الجبل الأفغاني ورجاله الصقور على التفوق المادي الأمريكي وبيتوا آلة الحكم الأمريكية في واشنطن في هم وقلق .

فإلى متى إدارة الأزمة ؟

ليس في هذا كله أي جديد جوهري . والأزمة سوف تبقى قائمة بسبب الفكرة التي كان يرددها أحد الظرفاء (أملنا كبير في حماقة العدو) .

وبدلا من أن يترك اللوبي الصهيوني الولايات المتحدة تشرب فشلها وخسارتها في هدوء ، فتعقد العزم على التخلص من آثار سياسات بوش ومحافظيه الجدد فإن اللوبي وموظفيه وعملاءه واصلوا دفعهم أمريكا إلى جنون العظمة والتطلعات الامبراطورية لكي يضمنوا قيامها بالحروب نيابة عن إسرائيل كلما خافت إسرائيل من نهضة أي بلد في المنطقة في أي مجال من المجالات .

لا أعتقد أن المنظمة المتوسطية التي يرمي هذا المتصهين إلى ترؤسها قابلة للتحقيق أو للحياة . ولا أظن أن الشريك الألماني الأوروبي بخاصة متحمس لتزعم فرنسا كيانا متوسطيا . ويخيل إلينا أن إيطاليا بدورها غير مساندة للفكرة حتى لو حضرت القمة في باريس .

وخلاصة الأمر أن بالون الرئيس ساركوزي بدوره لعبة تنقصها الجدية والقدرة على التنفيذ . وهي لا يمكن أن تكون مؤسسة فرنسية خالصة . ولا

بد أن ساركوزي ينتظر نتيجة الانتخابات الأمريكية ليذهب ويضعها في حجر الولايات المتحدة .

وسيبقى العالم في أزمة دائمة وستبقى الدول المختلفة صغيرها وكبيرها تعد نفسها في مرحلة إدارة أزمة ما لم تتغير نظرة الولايات المتحدة إلى نفسها وإلى تقييم خطواتها وسياساتها تجاه العالم وتجاه المنطقة العربية والإسلامية بصورة خاصة .

نعني بذلك تحديدا أن تتوقف عن لعب دور الشرطي العالمي ورئيس النادي النووي الذي يريد تخليد ميزان القوى العالمي الحالي . فالعالم لا يقبل قيام دولة بمفردها . لا سيما إذا كانت الولايات المتحدة حصرا . بدور الشرطي العالمي . فهي بالأحرى لص عالمي وليست شرطيا عالميا . واسألونا نحن العرب والمسلمين الذين تعرضنا على يدها لأضخم عملية نهب كبرى في تاريخ البشر . ومن يعرف قيمة ما استنزفته الشركات الأمريكية من آبار منطقتنا على مدى سبعين سنة ماضية من النفط يفهم ما قلناه حتما . وإن إطلاق اسم (المصالح) على السرقة والنهب الذي وافقنا عليه نحن العرب بموجب عقود إذعان مع شركات أمريكية لا يغير من واقع الأمر شيئا .

وما دمنا قد ذكرنا ما فعلته الولايات المتحدة بمنطقتنا ، فلا بد أن نضيف إن شن الحرب على العراق بهذا الشكل الذي حدث هو جريمة كبرى بحق الإنسان العربي والحضارة العربية والمستقبل العربي . وهو مذبحة من المذابح التي فاقت مذابح المحتلين الإسرائيليين في فلسطين . ولن يمكن تعويض العراق والأمة عما اقترفته اليدان الأمريكيتان الآثمتان ضد كل فرد منا إلا بدفع تعويضات مضاعفة تساعد على التغلب على بعض الآثار التي نجمت عن ذلك الغزو الإجرامي وعن تلك السياسات العنصرية الحاقدة .

لقد تحددت سياسة الولايات المتحدة تجاه منطقتنا في السنوات العشر الماضية على لسان رجلين مسؤولين أمريكيين على أعلى مستويات المسؤولية هما كل من جورج تينيت الرئيس السابق لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية الذي قال أمام ياسر عرفات أثناء المفاوضات في في كامب ديفيد : ((إن منطقة الشرق الأوسط بشعوبها وحدودها قابلة للتغيير)) . وكذلك الجنرال كولن باول وزير خارجية أمريكا عقب اجتياح العراق ، الذي قال ردا على سؤال في الكونغرس : ((إن الغرض من الحملة على العراق هو إعادة تشكيل الشرق الأوسط بما يتناسب مع المصالح الأمريكية)) . وقد نسج على منوالهما فورا وجاء صدى لصوتهما تصريح موشيه يعلون رئيس الأركان الإسرائيلي آنذاك حين قال : ((يجب إعادة تشكيل القوى في الشرق الأوسط عقب الزلزال الذي سيحدثه الهجوم على العراق)) .

فلندع جانبا ما يضع رجال سياسة من أمثال بوش أو أولمرت أو ساركوزي صياغاته في تصريحات كذوبة مرائية تتمسح بحقوق الإنسان أو بمحاربة الإرهاب أو بالأمن ودواعي الأمن ولنأخذ الصيغ الحقيقية التي تكلم بها هؤلاء المسؤولون الذين يقولون الحقيقة وتجيء الأحداث والوقائع مصداقا لكلامهم : فنحن طوال السنوات الخمس الماضية على الأقل نعاين الولايات المتحدة وإسرائيل وهما تعملان قتلا وهدما وخرابا في بلادنا ومنطقتنا بغية تمزيقها وتقطيع أوصالها والقضاء على دينها وثقافتها التي تشد بعضها إلى بعض وحضارتها التي تلهمها النهضة .

فما النتيجة التي توصلوا إليها اليوم ؟ إنها الفشل الكامل مهما تخيلوا أن بيننا من رضخوا وأذعنوا وساروا في الركاب . وحسب المسؤولين الأمريكيين والإسرائيليين أن ينصتوا إلى نتائج أي استفتاء شعبي حول أمريكا وسمعتها

ونواياها وصدقيتها في نظر شعوب المنطقة ليعلموا أن هذه الشعوب تعرف جيدا أن الحلف الصهيو . أمريكي حلف معاد لجميع مقومات الأمة وجميع أهدافها ، بل ولوجودها بأسره .

على الولايات المتحدة أن تسلم بفشل سياستها . وأن تنحت لنفسها سياسة أخرى .. بعيدا عن تأثير أولئك الذين سكنوا في مفاصل السياسة الخارجية الأمريكية وصبغوها بصبغة غير أمريكية أصلا . وإلى أن يتحقق ذلك فعلى الناس في المنطقة أن يفتحوا عيونهم جيدا وأن يحشدوا قواهم ضد الأعداء المصممين على عدائهم .